يطلبون منهم[١].

(٢٠-٢٣) ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ يقول تعالى - داعيًا عباده إلى التفكر والاعتبار -: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ وذٰلك شامل لنفس الأرض، وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار ونبات، تدل المتفكر فيها، المتأمل لمعانيها على عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن. وكذٰلك في نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن الله وحده الأحد[٢] الفرد الصمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى.

وقوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي: مادة رزقكم من الأمطار وصنوف الأقدار الرزق الديني والدنيوي.

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الجزاء في الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار.

فلما بين الآيات ونبه عليها تنبيهًا، ينتبه به الذكي اللبيب، أقسم تعالى على أن وعده وجزاءه حق، وشبه ذٰلك بأظهر الأشياء [لنا]، وهو النطق، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

فكما لا تشكون في نطقكم، فكذٰلك لا ينبغي الشك في البعث بعد الموت[٣].

(٢٤-٣٧) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝ [قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ]﴾ يقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ أي: أما جاءك ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ونبأهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاءوه في صورة أضياف.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ﴾ مجيبًا لهم: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذٰلك.

ولهذا راغ إلى أهله أي: ذهب سريعًا في خفية، ليحضر لهم قراهم.

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ وعرض عليهم الأكل.

فـ ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ حين رأى أيديهم لا تصل إليه.

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ وأخبروه بما جاءوا له ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وهو إسحاق عليه السلام.

فلما سمعت المرأة البشارة (أَقْبَلَتْ) فرحة مستبشرة ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ أي: صيحة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ وهٰذا من جنس ما يجري من النساء عند السرور [ونحوه] من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة.

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنَّى لي الولد، وأنا عجوز قد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء، ومع ذٰلك فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلًا فثَمَّ مانعان، كل منهما مانع من الولد.

وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود بقولها: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي: الله الذي قدر ذٰلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالى.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علمًا فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

﴿قال﴾ لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الآيات، أي: ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استشعر[٤] أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشئون المهمة.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا، أشركوا بالله، وكذبوا رسولهم وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه[٥]، لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد.

فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقال الله: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهم بيت لوط عليه السلام إلا امرأته، فإنها من المهلكين.

---

(١) في ب: والذين لا يسألونهم. (٢) في ب: أن الله واحدٌ أحدٌ. (٣) في ب: فكذلك ينبغي أن لا يعتريكم الشك في البعث والجزاء. (٤) كذا في ب، وفي أ: علم. (٥) في ب: على كل حجر اسم صاحبه.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدوقون.

فصل في بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار، ليعتبروا بحالهم[١]، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل الذي أمر الله هذا النبي[٢] وأمته، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هٰذا الموضع على وجه المدح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام بالقول والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولًا وفعلًا، ومكرمون أيضًا عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام، قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام[٣]، فرد عليهم إبراهيم سلامًا أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الثبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذٰلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ولم يقل: «أنكرتكم»، [وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفىٰ].

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، لأن خير البر عاجله، [ولهٰذا بادر إبراهيم بإحضار قِرَى أضيافه].

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة التي قد أعدت لغير الضيف الحاضر[٤]، إذا جعلت له ليس فيها أقل إهانة، بل ذٰلك من الإكرام كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

ومنها: ما منَّ الله به على خليله إبراهيم من الكرم الكثير، وكون ذٰلك حاضرًا عنده[٥]، وفي بيته معدًا، لا يحتاج إلى أن يأتي به[٦] من السوق أو الجيران، ولا غير ذٰلك.

ومنها: أن إبراهيم هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمٰن وكبير[٧] من ضيَّف الضيفان.

ومنها: أنه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله في موضع، ويقول لهم: «تفضلوا أو ائتوا إليه» لأن هٰذا أيسر عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصًا عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضًا لطيفًا، وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: «كلوا» ونحوه من الألفاظ التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

فينبغي للمقتدى به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: «ألا تأكلون» أو: «ألا تتفضلون علينا وتشرفوننا وتحسنون إلينا» ونحوه.

ومنها: أن من خاف من الإنسان[٨] لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكّن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم [لما خافهم]: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى من صك وجهها، وصَرَّتها غير المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة من البشارة بغلام عليم.

(٣٨-٤٠) وقوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ○ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ○ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون ومَلِئه بالآيات البينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى[٩] بذٰلك السلطان المبين فتولى فرعون ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: أعرض بجانبه عن الحق ولم يلتفت إليه، وقدح فيه أعظم القدح فقالوا: ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: إن موسى لا يخلو إما أن يكون ساحرًا وما أتى به شعبذة[١٠]، ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنونًا لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله.

هٰذا، وقد علموا، خصوصًا فرعون، أن موسى صادق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ [ظُلْمًا وَعُلُوًّا]﴾.

وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ [بَصَآئِرَ﴾ الآية].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: مذنب طاغ،

---

(١) في ب: ليعتبروا بهم. (٢) في ب: أمر الله محمدًا وأمته. (٣) في ب: في ابتداء السلام. (٤) كذا في ب، وفي أ: الخاص. (٥) في ب: لديه. (٦) كذا في ب، وفي أ: أن يستلحقه. (٧) في ب: وسيد. (٨) في ب: من أحد. (٩) كذا في ب: مصححة في الهامش، وفي أ: فلما أتي فرعون. (١٠) في ب: إما أن يكون ما أتى به سحرًا وشعبذة.